فاطمة بوقري / الصفحات: من 71 إلى: 81

الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م

Available online at <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715>

صورة المدينة في رواية "حارسة الظلال" لوسيني الأعرج.

The Image of the City in the Novel "Guardian of the Shadows" by Wassini Laaradj.

فاطمة بوقري

نورالدين عثمان طالبة

جامعة مولود معمري-تيزي وزو (الجزائر)

fatimaboukarri@gmail.com

تاريخ النشر: 2022/12/31

تاريخ القبول: 2022/12/04

تاريخ الإيداع: 2022/11/26

الملخص باللغة العربية:

تحتوي الرواية المعاصرة بعدا ثقافيا واضحا، تتضافر فيه آليات الثقافة بتقنيات الحدائة الساعية دوما إلى التجديد والتجريب، قصد مواكبة متغيرات العصر المستمرة والمتسارعة، لذا لم يجد الروائي الجزائري بدأ من الانضمام إلى هاته الحركات التجديدية، والتي جعلت من المدينة بحركيتها السريعة وتيماتنا المختلفة وفئاتها البشرية المتنوعة فضاء مهما يتم من خلاله التغلغل إلى قلب الحياة البشرية قصد النظر في رؤيتها للذات أولا ثم للأخر والعالم ثانيا، محولة بذلك اتجاه السفينة الإبداعية من الريف والقرية والطبيعة الساكنة، إلى المدينة المميّزة بحركيتها وضجيجها وتزاحم الأقدار والتحويلات الزمانية والمكانية المتسارعة فيها.

إنّ ما تحويه المدينة من صور حيّة تعري الذات الإنسانية من بهرجها وزينتها وتبديها على حقيقتها، قد جعل من هذا الفضاء ظاهرة فنية حقيقية تستبدل اليوتوبيا الزائفة بديستوبيا واقعية وحية بمقدورها استيعاب أفعال الشخصيات ومواقفهم وصراعاتهم المستمرة، كما هي واقعة فعلا في حياة الناس ويومياتهم، وهو ما عمد الروائي الجزائري إلى تبيينه فعلا، إذ لم يستسلم لتبعيته أو ميوله نحو القرية أو البادية كما فعل سابقوه، وإنّما حاول أن يتكّيف مع المدينة، لأنّها قدره الراهن، فدخل معها في صراع محتدم، مناقشا ظروفها وحياتها كما هي واقعة فعلا، بأزماتها ومشاكلها اليومية، ومحاولة معالجتها بأسلوب سلس مفعم بالحيوية والروح الفنية المعاصرة.

انطلاقا من هذا المعطى ارتأينا جعل مقالنا هذا مناسبة لمعالجة المدينة كموضوع روائي يرنو تبيان هموم المجتمع المدني المعاصر، وعلى هذا الأساس تمّ اختيار رواية "حارسة الظلال" لوسيني الأعرج كعينة من عينات الإنتاج الروائي الجزائري المعاصر، والذي يهتم بتصوير المدينة تصويرا تفصيليا دقيقا ويحيط بشتى تفاصيلها المادية والمعنوية، والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بتاريخنا وذاكرتنا، وليس هذا فحسب وإنّما تحمل هاته الرواية في طياتها أيضا استراتيجيات مقاومة فريدة يقف أصحابها من خلالها ضد أي محاولة لطمس هويتهم وتاريخهم وماضهم المجيد.

الكلمات المفتاحية حارسة الظلال، مدينة، بشاعة، مقاومة.

Abstract :

The contemporary Algerian novel contains a clear cultural dimension, in which it combines the mechanism of culture and intertwines with the techniques of modernity, which is always striving for innovation and experimentation, in order to keep the pace of the continuous and rapid changes of the times. Therefore, the Algerian novelist had no alternative but to join these innovative movements, which made the city, with its rapid movements, various themes, and its diverse human categories, an important space through which penetration into the human life's heart takes place to consider first, its vision of the self, second of the other and the world., As a result, it transformed the direction of the creative ship from the countryside, the village, and the static nature to the city characterized by its movement, noise, jostling of fates and the accelerating temporal and spatial transformation in it.

The vivid images included in the city, strips the human soul of its glamor and adornment and reveals its true nature, it has also made of this space a real artistic phenomenon that replaces the false Utopia with a realistic and vivid Dystopia which is able to absorb the characters' actions, their attitudes and their struggles, as it really occur in people' lives and in their daily activities. And this is what the Algerian novelist actually adopted; so, he did not surrender to his subordination or tendencies towards the village or the countryside as his predecessors did, but rather, he tried to adapt to the city, because it is his current destiny, thus, he got into a fierce struggle with it, discussing its circumstances and its life as it in reality, with its daily crisis and problems, also trying to address them in a smooth manner full of vitality and contemporary artistic spirit.

Proceeding from this fact, we have decided to make of this article an opportunity to treat the city as a fictional subject that seeks to clarify the concerns of the contemporary civil society. On this basis, the novel «Guardian of the Shadows"

Written by Wassini Laaradj was selected as a sample of contemporary Algerian novelist production, which is interested in depicting the city in a detailed and accurate manner and encompasses its various physical and moral details, which is also closely related to our history and memory; and not only that, but this novel also carries with it unique resistance strategies through which its author stand against any attempt to obliterate his identity, history and glorious past.

Keywords: *Guardian of the Shadows, city, ugliness, resistance.*

مقدمة:

تعدّ الرواية أحد الأجناس السردية التي استطاعت في وقت وجيز أن تحتل الصدارة في الساحة الأدبية (العربية منها والغربية على حدّ سواء) بعد أن كانت -نتيجة لخضوعها لمعايير البلاغة القديمة- مجرد جنس أدبي وضيع، وذلك لإسهامها الكبير في طرق قضايا المجتمعات والشعوب المختلفة عن طريق طرح رؤى عالم مختلفة وتقديم تقنيات تصويرية وتعبيرية متنوعة، ولعلّ هذا التنوع الرؤيوي الذي حملته الرواية في طياتها هو ما ميّزها كفن طليعي مختلف عن باقي الفنون والأجناس الأدبية الأخرى، وهو ما بوّأها أيضا تلك المكانة المرموقة التي حظيت بها في جميع آداب العالم، شرقها وغربها، شمالها وجنوبها، وبجميع اتجاهاتها وطرائق الكتابة فيها.

وعليه، يمكننا القول اليوم بأن الرواية هي من أخصب الأجناس الأدبية وأكثرها سعة لاستيعاب كلّ القضايا الإنسانية، الاجتماعية منها والثقافية والسياسية والأخلاقية وحتى التاريخية والدينية أيضا، دون أن تسقط في فخ معايير الصحة والخطأ والصدق والكذب، بل إنها في بعض الأحيان تفوق الوثائق التاريخية دقة، وذلك من خلال سعيها لمحاكمة التاريخ مثلا وتصحيح مغالطاته التي رُسّخت في اللاوعي الفردي والجمعي على حدّ سواء، ولعلّ هذا قائم أساسا على فكرة أنّ الروائي يتناول القضايا بعين فاحصة ناقدة، تحلّل القضايا وترصدها، بل

فاطمة بوقري / الصفحات: من 71 إلى: 81

الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م

Available online at <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715>

وتنقلها إلى القارئ في قالب إبداعي يكشف عن مدى تفاعل الأديب مع موضوعات عصره، وهذا ما جسدهته الرواية العربية المعاصرة، و الرواية الجزائرية منها بشكل خاص في فترة المحنة الجزائرية، أو كما تسمى فترة العشرية السوداء، ذلك أن هذا الجنس الأدبي قد سعى في العديد من المرات إلى لعب دور المرأة الثقافية التي تتجاوز بعد عكس الصور الحياتية في تلك الفترة إلى محاولة لعب دور فاعل لتصحيح بعض المفاهيم، وهي في خضم هذا كله سعت إلى استثمار آليات وتقنيات حديثة أوجدتها رغبة الأديب العربي في التجريب، محاكاة للغربي في أحيان كثيرة، بقصد مواكبة متغيرات العصر المتسارعة.

إنّ هاته الحركية التاريخية والسياسية العالمية المتسارعة قد كان لها أثرها الواضح على محتوى الرواية، خاصة في جانبها الحضاري المتعلق بالمدن وحياة الإنسان فيها، وعليه، لم يجد الروائي الجزائري بدا من الانضمام إلى تلك الحركات التجديدية المطعمّة بروح العصر وقضاياها، من مدينة وعولمة وغير ذلك، جاعلا المدينة بمثابة أرضية صلبة من شأنها صناعة خصوصية الفن الروائي الجزائري المعاصر.

إنّ اهتمام الرواية بتيمة المدينة ليس نابعا من فراغ، وإنما هو راجع أساسا إلى ارتباطها كجنس أدبي بالمجتمع وتفصيله، فهي-إن صحّ القول-صورة عاكسة للإنسان في علاقته بالمكان وتلبّسه به، كيف لا وفي تصويرها للمكان تصويراً لحياة الناس، لهمومهم وهواجسهم وأفكارهم، تصوير لإحساسهم بالضيق وفقدان القيم وانعدامها وتلاشيها، ولو أن هذا الفضاء كثيرا ما يأتي في الرواية الجزائرية موازيا للفساد والانحلال الأخلاقي، وخير مثال على ذلك رواية حارسة الظلال لواسيني الأعرج، التي كان للروائي فيها رؤيته الخاصة للمدينة في ظلّ المأساة المعاشة وظاهرة العنف المستفحل، وفي ظلّ الموت الضارب في عمق المجتمع وتفكيره (واقعاً وحلمًا).

عموما واستنادا إلى هذا الطرح، ارتأينا جعل مقالنا هذا مناسبة لمعالجة المدينة كموضوع روائي يرنو تبيان هموم المجتمع المدني الجزائري المعاصر، وعلى هذا الأساس تمّ اختيار رواية "حارسة الظلال" لواسيني الأعرج كعينة من عينات الإنتاج الروائي الجزائري المعاصر، والذي يهتم بتصوير المدينة تصويرا تفصيليا دقيقا ويحيط بشتى تفاصيلها المادية والمعنوية، والتي ترتبط ارتباطا وثيقا بتاريخنا وذاكرتنا، وليس هذا فحسب وإنما تحمل هاته الرواية في طياتها أيضا استراتيجيات مقاومة فريدة يقف أصحابها من خلالها ضد أي محاولة لطمس هويتهم وتاريخهم وماضيهم الضارب في عمق التاريخ .

وعليه، سنسعى ههنا للإجابة عن إشكالية مهمة مفادها: هل كان حضور المدينة في رواية حارسة الظلال مقتصرًا على الجانب المادي فحسب، أم أنّها كانت حاضرة بوصفها فضاء يمكن أن يلامس الجانب النفسي للشخصيات؟ بعبارة أخرى: كيف صور لنا واسيني الأعرج مدينة الجزائر في روايته؟ هل صورها كفضاء شاعري أليف تتحقق فيه المتعة والغواية خالٍ من أي ذاكرة أو هوية أو رمز تاريخي، أم أنّه صورها كفضاء مفعم

فاطمة بوقري / الصفحات: من 71 إلى: 81

الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م

Available online at <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715>

بالفجائية واليأس يحاول ساكنوه هدم الواقع المعاش والقاسي وبعث الذات من جديد على أنقاض التاريخ والذاكرة والهوية؟

الرواية الجزائرية في زمن المحنة التسعينية:

عرف المنجز الروائي الجزائري جملة من التحولات التي واكبت التحولات التي مسّت الجزائر في عمقها منذ بداية التسعينيات، أي منذ سقوط الجزائر في دوامة الدم، والتي احتدمت معها الأوضاع وتشابكت فيها خيوط الأزمنة، فغرقت الجزائر بسببها في محنة صعب إيجاد حلّ لها على جميع الأصعدة، سياسيا واقتصاديا وحتى دينيا أيضا، لتتحول البلاد بذلك إلى ساحة مليئة بالدم تتصارع على أرضها عدّة أنظمة وأحزاب كلّ منها يريد اعتلاء كرسيّ الحكم، ممّا أدخل البلاد في محنة لا منفذ منها، أدّت بأبنائها إلى الدفاع عنها بالسلاح والقلم، وهذا ما جسدهته الكتابة الإبداعية في هاته الحقبة الزمنية المريرة وما تلاها، حيث واكبت قطار الموت والاعتقالات، ممّا أدى إلى ميلاد أدبٍ يحمل في طيّاته الواقع بأحداثه جميعها، أدبٌ أطلقت عليه عدّة تسميات، والتي كان منها الأدب الاستعجالي أو أدب المحنة، وهو في الأصل أدبٌ يعالج قضايا الراهن وواقع البلاد المزري تحت وطأة الإرهاب والعنف.

وعليه، وبما أنّ الأديب كغيره من أبناء الشعب يرى ويشعر ويعبر، فإننا نجد أنه قد تأثر بدوره بما آلت إليه بلاده، ولم يكن أمامه من بُدٍ سوى التوحد مع هذه التحولات التي انعكست في التجربة الفنية لتلك المرحلة وما تلاها، في محاولة منه للاقترب من الواقع الملتهم وتفسير خلفيات الأزمنة واندلاع ظاهرة العنف في الجزائر¹، فظهرت بذلك كوكبة لامعة من الأسماء في مجال الرواية، نذكر منهم: أحلام مستغانمي، محمد مفلح، بشير مفتي، وسيني الأعرج... وغيرهم كثير، إذ اتخذ هؤلاء من محنة الجزائر بؤرة لأحداث رواياتهم، وفي لُبّها تشكلت عناصر سردها واستنادا إليها اتخذت رؤى كتاباتها.

إنّ العنف الكبير الذي مسّ تراب الجزائر قد خلّف شرخا كبيرا وجرحا عميقا في نفوس أبناء الوطن، الأمر الذي جعل نصوص هذه الفترة عبارة عن لوحات مكتسحة بالسّواد والدم، كيف لا!! والإرهاب قد استخدم العنف كأسلوب للضغط طلبا لتأييد الاتجاهات المناوئة له، والمطالبة بالتغييرات الاجتماعية الجذرية²، فانعكس هذا العنف في طيّات الرواية الجزائرية المعاصرة واكتسح أحداثها، وخير مثال على ذلك ما نجده في رواية حارسة الظلال لواسيني الأعرج التي تحكي قصة ذلك الشاب الجزائري المثقف الذي راح ضحية منظومة فاسدة، وشعب توارى حجاب الحقيقة عن عيونه، فغدا يخبط خبط عشواء لا يدري أيصيب الصواب بسهمه أم يحيد عنه.

فاطمة بوقري / الصفحات: من 71 إلى: 81

الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م

Available online at <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715>

يستهل السارد -الذي هو حسيسن- روايته من نقطة يكون كل شيء فيها قد حُسم، فيلجأ إلى الاسترجاع ويستند إليه في سبيل سرد سيرته المأساوية تلك، ساردا كيف أنّ الجماعات الإرهابية قد قامت ببتّر لسانه وعضوه الذكري بعد أن صنّفته ضمن جماعة الطاغوت، لا لشيء إلا لكونه يشغل منصبا مهما في وزارة الثقافة كمكلف بالعلاقات الدبلوماسية الجزائرية الإسبانية.

يأخذ السارد بزمام السرد انطلاقا من النقطة المذكورة، فيروي جميع الأحداث المتعاقبة التي أدت به إلى تلك الحالة من العوز، إذ يروي كيف أنه وفي يوم صيفي حار دقّ باب مكتبه رجل طويل القامة حاد الملامح غريب اللهجة يُدعى فاسكيس دي سيرفانتيس دالاميريا، بُعث إليه خصيصا من قبل أحد معارفه لمساعدته في مهمة إنسانية، تتمثل في تتبع آثار جده، الكاتب الكبير ميغيل دي سيرفانتيس دالاميريا، صاحب الرواية العالمية "دونكيشوت دالامانشا"، والذي كان قد سُجن يوما بالجزائر على أيدي الانكشارية العثمانيين في مغارة تنزّ بالطوبية.

تبدأ رحلة الرجلين، ويتدفق الزمن على لسان السارد باستمرار ملحوظة، غير أن هذه الاستمرارية سرعان ما تصطدم بحدث يوقف اندفاع الزمن ويغيّر مجرى الحدث، إذ إنه وبعد صدمة الوقوف على واقع البلاد الموبوء وحال المعالم الأثرية المتروكة بين أيدي الإهمال والنسيان، هاهو فاسكيس يقع سجيناً خطأ بين أيدي السلطات الأمنية الجزائرية بتهمة الجوسسة وتزويد الجماعات الإرهابية بالأسلحة. ليرحلّ الضيف الأجنبي عنوة إلى وطنه عقب ذلك، وبعد أن خضع لتحقيقات مطوّلة كشفت عن براءته، تاركا حسيسن بطل الرواية دون وداع، ودون أن يدري هذا الضيف بأنّ ذلك اللقاء العابر الذي جمعه ببطل الرواية سيجرّ على هذا الأخير عواقب وخيمة، ستغيّر مجرى حياته تماما.

تتوالى الأحداث، ويقع حسيسن بين يدي الجماعات الإرهابية، لتقوم هذه الأخيرة بتعذيبه أشد تعذيب، تاركة إياه في النهاية مواطننا صالحا بلا لسان ولا عضو ذكري، محمّلا بسؤال واحد لا جواب له: مالذنب الذي اقترفته كي أستحقّ كلّ هذا التعذيب، وهذه الوحشية كلها؟ عزاؤه الوحيد في تحمّل ذلك العذاب حبّه للوطن واستصغار كلّ مصاب لأجله.

تتألف رواية "حارسة الظلال" من ستة فصول، لكلّ فصل عنوان مستقل، فكان عنوان الفصل الأول عائلة الخضر، والفصل الثاني عنون بخراب الأمكنة، والفصل الثالث بناس من تبّ، والرابع بالعودة، والخامس بكورديلو دونكيشوت والفصل السادس والأخير عنون برائحة الخوف، حاول الروائي من خلالها رسم صورة الجزائر إبان سنوات الجمر عن طريق تقنية استرجاع أحداث تاريخية سابقة، فرسم في ثناياها صورة سوداوية لمدينة الجزائر في ظل سنوات الإرهاب.

فاطمة بوقري / الصفحات: من 71 إلى: 81

الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م

Available online at <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715>

إنَّ السارد وفي خضم عرضه لبعض تجاربه الحياتية الخاصة كان عاجزا على الدوام عن إخفاء عشقه الأبدى لمدينة "الجمال والجنون وأزاهير الرمل"، إذ لم يكن يدخر جهدا أو مناسبة إلا ويعبر فيها عن هذا الحب العميق والعاطفة الجامحة المختلطة ببحه الأسى على ما طال الوطن من خراب ودمار، فكان كلما وقف أمام معلم من معالمها غاص بنا في عمق ذاكرة الوطن الحية، ليضعنا السارد بذلك -وعلى فترات متقطعة- على عتبة تاريخ وطني مترامي الأطراف، من بدء فترة الحكم العثماني-التي ميّزتها كثرة الحروب الدينية والنزاعات المتواصلة على الحدود الإقليمية المائية (بين شرق دافئ وخصيب وغرب قاحل مليء بالجليد) ووصولاً إلى فترة الاستعمار الفرنسي بمظاهر زهو العمران فيها، وهي الفترات التي تصبّ كلها في مصبّ واحد يشي بحضور قوي لزمان الاستقرار والبناء، والذي إن بحثنا عن سبب إدراج السارد له لقلنا بأنه كان لأجل عكس وضع الوطن الراهن المليء بالقتامة من جهة، ومن جهة أخرى لإسناد تجربة البطل الشخصية إلى دعامة الواقعية، ولعلّ هذا هو ما يفسّر في الجانب الآخر لجوء السارد إلى التاريخ من خلال إدراج تواريخ واقعية لها علاقة وطيدة بأحداث مهمة في مسيرة الوطن الطويلة عبر الزمن، يقول السارد: "وفي سنة 1790.. وفي سنة 1846 حتى سنة 1905 والتي تصادف.. ذكرى الشاعر رينيار الذي كان أسيرا بالجزائر من 1678 إلى 1681.. وفي 7 مايو بدأ الهجوم.. وفي صبيحة 27 مايو.. هذا المكان صنّف كمعلم تاريخي يوم 20 فبراير 1911.. وفي أول نوفمبر 1994.. في ذلك اليوم الخريفي الحزين: 26 سبتمبر 1575"³

البعد المأساويّ للفضاء في رواية حارسة الظلال:

"ال... ج... زا... د... ر" بهذه الكلمة المجزأة بدأ السارد روايته، وهي الكلمة التي تضعنا وجها لوجه مع قراءة سيميائية تأويلية لهذه الأخيرة، التي حاول السارد من خلالها تبيان مدى شساعة التاريخ الجزائري المليء بالملاحم والأساطير والممتد إلى أكثر من ثلاثة آلاف عام، ويكأنّي به يحاول أن يروي بطريقة غير مباشرة تاريخ الجزائر الطويل، تاريخ الجزائر الممتد من عهد القرطاجيين والرومان والوندال إلى عهد الفرنسيين والإسبان، ومنه إلى وقتنا الراهن. في صورة لا تخلو من الإيحاءات الدالة على عراقية هذا الوطن الذي اختلطت فيه كلّ الدماء والألوان، "الموريسكي واليهودي والمرتد والمسيحي والعلماء القادمون من كل الأصقاع الأوروبية وشذاذ الآفاق والعاشقون وغيرهم"⁴، لتكون تلك الكلمة الموجزة تمهيدا للآتي الذي سيضعنا السارد من خلاله في حضان فضاء واسع شاسع يحوي آثارا لأزمة شتى، منها الهيج الموغل في القدم، ومنها الحاضر المخضّب بحنّاء الدمار والمليء بمأساوية الأحداث والوقائع.

"الجزائر.. أيتها المومس المعشوقة.. امرأة الصباحات التي تعيش في ظل مجهول، عارية إلا من صرخاتها وإصرارها على الحياة، لا ملاية لها لتغطية الأموات الذين يسقطون يومياً بين ذارعها، وذاكرتها الموشومة بالألام والخوف"⁵، الجزائر.. المدينة التي تختصر جرح وطن بين ثناياها، المدينة الأكثر جرحا، المدينة الأكثر بوحا، هذه

فاطمة بوقري / الصفحات: من 71 إلى: 81

الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م

Available online at <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715>

المدينة "البيضاء مثل الصوف المغسولة بماء عذب بساقية قبائلية"⁶، ها هي "تصرخ كلّ ذرة من ذراتها ألما وخوفا واستشهادا"⁷.

من خلال الملفوظات السابقة نصل إلى أن السارد قد عمد إلى إضفاء طابع تشخيصي على المكان من خلال أنسنته وتحميله ملامح إنسانية محضة. "مسكينة أيتها السيدة المتوحشة، حارسة الظلال والأسى، أيتها المنسية، ورقة تدرجت من سورٍ مهالك في فراغ ضيّع أصداءه"⁸. ليكون السارد من خلال هذا قد انبرى على "هدم كل الصّلات المألوفة وكل المجاورات العادية بين الأشياء والأفكار، وفي إنشاء مجاورات غير متوقعة بما في ذلك أبعد الروابط المنطقية واللغوية عن التوقع، وعلى أساس هذه المجاورة الجديدة للأشياء يجب أن تتكشف لوحة جديدة للعالم"⁹، وهو ما أكسب المكان معنى جديدا وواقعية مشخصة تفيض عن المعاني التقليدية وتجعل من هذا الفضاء فضاء حيا يولد من الكلمات، تؤطره المشاهد والتجربة اليومية لكاتب عاش في ربوعه ثم حمله معه كي يبثّ صورته المظلمة في أوراقه، ليرى من خلالها الأشياء، وينظمها انطلاقا من قناعاته الجمالية والفكرية.

إنّ هذه المدينة التي شهدت مرور الفينيقيين والرومان والوندال والبيزنطيين، واحتضنت حضارة العثمانيين وإرث الأندلس الباهر، هاهي تتداعى أمام اجتياح زمان الهدم والتدمير. هاهي واقفة عارية وريح الدمار يعصف بها من كلّ جانب، لا تدري إلى أين السبيل ولا أي طريق تسلكه يؤدي بها إلى طريق الخلاص. الأماكن لم تعد كما كانت، الحدائق والطرقات والشوارع والشرفات وواجهات المباني يكسوها صخب الزمان الذي لا يشبه أي زمان، ويكأني بالأماكن قد لبست ثوب الحداد بحلولة وأعلنت علانية حالة الفقد واللوعة على ضياع البلاد وضياع زمانها الذي مضى ومضت معه معالم تراثها العريق.

من جانب آخر نقول بأنّ ميزة السخونة التي طبعت الزمان (الزمان الروائي) قد انعكست جليّا على كلّ ربوع البلاد، كاسية إيّاها لباس التصحّر واليباس، فلو تفحصنا بعضا من أجزاء الرواية لوجدناها حافلة بمقولات القبط والسخونة والاضطراب الدالة على زمان الصيف (زمان الحدث)، والتي كان منها: "فتحت مكتبي ففاجأتني حرارة الصيف القاتلة.. الشمس لا تطاق في هذه المدينة.. كانت الرطوبة تجعل من التنفس أمرا صعبا.. لم تتغير حرارة الجو القوية.. كان الهواء الصباحي ثقيلًا.. الحرارة الجهنمية لا تطاق"¹⁰. وغيرها من الملفوظات التي انبنى عليه السرد، والتي نلّفها حافلة بالأنساق المضمرة والدلالات الإيحائية، فإذا كان الصيف بوصفه وحدة زمنية ترمز إلى الاستقرار والاسترواح والاستجمام في الحالات العادية فهو حسب تجلياته الخطابية يرمز إلى اللأ استقرار (الصراع)، ليكون الصيف بهذا المفهوم مرتبطا بمقولات جعلته يرتقي في "حارسة الظلال" من كونه وحدة زمنية (فصل من الفصول الأربعة) إلى كونه وحدة رمزية (مرحلة اجتماعية ساخنة) تحيل إلى حال الصراع والنزاع والتشقّق الاجتماعي الحاصل بين أبناء البلد الواحد.

فاطمة بوقري / الصفحات: من 71 إلى: 81

الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م

Available online at <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715>

إنّ الملاحظ على الأماكن في هاته المدينة (في روايتنا هذه) هو حملها لدلالة سوداوية وقاتمة جارحة، وهي الصورة التي تروي بشكل فاضح قصة ضياع الأمكنة ودمار التاريخ واقتطاع الحضارة فيها، لتغدو وطأة هذا الزمن الدّامي تصب نيرانها على كل شيء، حتى الموت الأليف الذي كان ينسلّ بوداعة وسكينة وهدوء تغيرت ملامحه وأصبح يأتي صاحبا: "في ليلة الأربعاء إلى الخميس اقتحمت مجموعة مسلحة بيت عائشة التي كانت إطارا بالولاية.. عندما فتحت الباب هجم عليها شخصان ملثمان طلبوا منها تعاونها وسيلا من المعلومات تخص عملها، رفضت فهددوها بقتل بشع ومؤلم"¹¹. ابنتها الكبرى تروي: "ترجّتهم أمي أن لا يذبحوها أمامنا، قبلنا أرجلهم حتى يتركوها، قدحّت عيننا أحدهم شررا، كانت هيئته مرعبة، هيئة حيوان مفترس، وضع أمي بين ذراعيه العريضتين الموشومة بالشعابين جذبها بقوة باتجاه صدره وضغط على رقبتها بكفيه الغليظتين، ثم سحب رأسها ضاغطا بركبته اليمنى على عمودها الفقري، فانهارت على ركبتيها عندما أصبح نحرها بارزا أخرج سكينه كبيرة.. فجأة احمر وجهها ورقبتها ولباسها ويدا القاتل الذي قبل أن يترك الجسد البارد ينكسر بصمت وبدون صراخ على البلاط لمعت عيناه للمرة الأخيرة، وهو ينظر إلينا قطع رأس أمي الذي ظل عالقا بالجسم بجلدة رهيبة، أخذه من الشعر ولم ينتبه مطلقا إلى الدّم الغزير الذي ظلّ يسيل منه مكّونا خطوطا منكسرة ونقاط متتالية، ثم أمر قتلته بالانسحاب.. عندما خرجوا وسط الظلمة جريت وراءهم حتى محطة البنزين هناك دفنوا رأس أمي في برميل الفضلات"¹². حتى حسيسن بطل الرواية لم يسلم من أيدي هذا الزمن البائس، فهذه الشخصية قد عاشت هي الأخرى حال الموت التي تأكل الإنسان، وهو يسمع خشخشة السكين الصدئة وهي تتحرك جيئة وذهابا تتلذذ بقطع العروق واللحم، ليجد نفسه في النهاية مواطنا صالحا لا يُسمع حسّه ولا يُخشى جنبه.

مما سبق نجد أنّ تأمل تفاصيل وأحداث الرواية يضع القارئ أمام حقيقة أن الشخصيات جميعها -بلا استثناء- مسكونة بالحالة العاصفة التي مرّت بها البلاد. وكأنيّ بها تحاول أن تثبت من خلال معاناتها تلك أن ألم البلاد هو ألمها، وأن اغتصاب ثروتها هو اغتصاب لعرضها وانتقاص من رجولتها، فأين مكنم الرجولة واللسان حبيس الصمت والوطن يُستباح عرضه في كل أن ومكان!؟.

إنّ هذا الزمن الموبوء، المنتشر في أرجاء البلاد، والذي جعل البشر يعيشون داخل دغل من الخواء والخوف والنهب هو ما جعل حسيسن يفقد الأمل في أي مستقبل مشرق، فكل واحد يبذل مجهوده من أجل أن يأكل الآخر بشكل أكثر جرأة وذكاء، أو بأكثر الأشكال بشاعة وعنفا: "أيّ مستقبل يبقى عندما ترهن الحياة والألوان والحقيقة، ويتحول كل شيء إلى رماد مطاط محروق، عندما يصبح بلد بأكمله مجنوننا لسبب تافه، ويصمت عندما يتعلق الأمر بالفضاعات المتكررة"¹³ وهو الأمر الذي جعل اليأس يتعدى بحسيسن إلى درجة توقعه خروج إنسان من صلب هذه المدينة -على الأمد القريب- يسعد لحرقها وتدميرها، لأنها بالنسبة له ليست أكثر من حجارة متراصة مفرغة من كل ذاكرة، مستشهدا في سبيل ذلك بشخص أحد المسؤولين الكبار في هذا

فاطمة بوقري / الصفحات: من 71 إلى: 81

الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م

Available online at <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715>

البلد، وهو الذي لم يتوان عن إهداء لوحة نادرة لدولاكروا من أملاك المتحف الوطني للفنون إلى ضيفه الأجنبي الذي وقف باهتا أمام الهدية¹⁴، في صورة تثبت أنّ "أبناء هذه البلاد مصابون بالأمنيزيا ومرض النسيان، وهو ما يجعل المستقبل غامضا.."¹⁵.

غير أنّه وعلى الرغم من كل هذا الخراب والموت والعنف الذي ساد المدينة القديمة والذي يقودها ببطء إلى مملكة الفناء، إلا أنّ أعمدتها وأقواسها وفوانيسها لا تزال متشامخة كالطود العظيم على هامة ذاكرة حسيسن، الذي يعيش بذاكرة مرتبطة بالماضي العريق، بعيدا عن حاضر الموت والخراب، عزائه في ذلك أغنية مسكود التي يشيخ فيها الفنان رفات مدينة تسير بصمت نحو الموت: "الجزائر يا العاصمة.. أنت في قلبي ديما إلى يوم الدين.. من كل جهة جاك غاشي.. قولوا يا سامعين.. ريحة البهجة وين.."¹⁶. أنيسه الوحيد في عزلة زهرة كاسي تشترك معه -كما قال- "في رابطة الدّم والذاكرة وشيء غامض حار يصعب تحديده"¹⁷، فهي اللذة الوحيدة التي تشق عليه عزلة في المساءات المستوحشة، هي السبيل الوحيد والذاكرة الخالدة التي لا يزال يحتفظ بها في غرفته، والتي تذكره دوما بأصله الموريسكي وبجده الذي "على الرغم من تركه لأرضه وجنته الأندلسية ومدينة غرناطة الجريحة إلا أنّه ظل في منفاه وفيّا لأحجارها القديمة الممتلئة بالأنين والتمزقات والانهيارات التي دغدغتها طويلا، جده الذي ظلت عيونه عالقة بمدينة الفرح والملح والكتب العالية، وبمحارق محاكم التفتيش المقدس التي مضت بدون توقف تأكل خرائنات كتبه حتى آخر الصفحات فيها، قبل أن يلتجئ إلى الكهف، في انتظار قدوم المارانوس الذي وعده بالمساعدة على مغادرة بلد الرماد في سفينة القرصان الإيطالي.. عندما استقلت السفينة وغطت أمواج فقدان العالية تربته عضّ الجدّ على يده طويلا ولم يبرأ من جرحه حتى الموت.."¹⁸. لتكون زهرة الكاسي (الكارمن) هذه بمثابة قناة اتصال قوية تربط حسان -مثلها مثل المعالم الأثرية الأخرى- بماضي المدينة العريق، الذي هو في الوقت نفسه ماضي الشخصية وذاكرتها الحية، فيها، وبحضورها الدائم، صار حسيسن يتجاوز وباء الزمن الحاضر إلى زمن ماضي تحلق فيه الذات في عالمها الفكري التأملي الوجودي العميق، كما أنّها تعدّ مصدر إلهام كبير أيضا لتلك الشخصية العاشقة لأهات الأوراق وهي تفقد بياضها رويدا رويدا بين يدي القلم، إذ إنه وفي تلك اللحظات الشاقة التي يعيشها الوطن وتستشعرها الشخصية صارت الكتابة هي الشأن الوحيد الذي صار يهيمه بعد الهزائم اللامحدودة في هذه البلاد¹⁹، ليغدو حضور الآلة الكاتبة في حياته الحضور الوحيد القادر على أن يملأ خوفه المفجع.. هي رفيقه الأوحده، ومعشوقته الاستثنائية.. طقطقاتها وهي تن تحت أصابعه تولّد لديه الإحساس بالرفقة والحياة، وتشي بآلامها المفجعة وأسرارها المدفونة التي ضيبت الاسم والمعنى²⁰.

إنه وعلى الرغم من فقدان الفجائي لسعادة اللذة وامتعة القول إلا أنّ حسيسن كان لا يزال يملك قدرة عظيمة على الكتابة، ولعلّ هذا كان ليسدّ حاجته ويغنيه عن أي شيء آخر في هذا العالم، وربّما يكفيه لقضاء عمر آخر مثل هذا العمر إذا تطلّب الأمر، فالكتابة بالنسبة إليه ليست هواية عرضية فحسب، وإنّما "رعشة

فاطمة بوقري / الصفحات: من 71 إلى: 81

الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م

Available online at <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715>

ألم خفيّة نخبّتها عن الآخرين حتى يلمسوا حجم المأساة وجحيم صرخات الكلمات المذبوحة بنصل صدى²¹.
 رعشة الألم الوحيدة التي بإمكانها إمداد البطل بكمية كافية من القوة لمواجهة فكرة الهجرة والتخلي عن الوطن. ذلك أنّ بطل الرواية لم يتخلّ عن وطنه، بل ظلّ متمسّكا به تمسّك جذور الأشجار بتربتها، ليعيش وبصدق تأثير الزمان المتحول على المكان وعلى حياته الخاصة، عزأؤه الوحيد في ذلك صوت خافت ينبعث من داخله ينبئه بأنّ ليل هذه المدينة لن يكون سرمديا، فهو يحمل في طيّاته وعودا بصباحات بيض، صوت خافت يخبره بأنّ هذا الوطن لن يموت بل سيبقى حيّا دائما، فقوّته اللامتناهية على التجدد والولادة من أشلائه وآلامه.. ستجعله يعيد خلق نفسه باستمرار، ففي اللحظة التي يظن فيها الجميع الأصدقاء والأعداء أنه انتهى سينشأ مجددا من رماده.

خاتمة:

وخلاصة القول: إنّه وبعد الدراسة المختصرة التي استهدفت البحث في صورة المدينة الجزائرية في رواية حارسة الظلال لواسيني الأعرج، يتضح لنا أنّ فضاء المدينة فيها إنما أتى مرادفا للموت والانهيار والبشاعة والخراب والدمار والانحلال والرذيلة، يسكنها الرعب جرّاء العنف الممارس من طرف الإرهاب، فأصبح كلّ شبر منها يعاني ويمارس على مستواه العنف على اختلاف أشكاله وألوانه.

انثقت صورة المكان في رواية حارسة الظلال من كون الفضاء مسرحا رئيسيا لأحداث سياسية واجتماعية وإنسانية...، فعوض أن يشير هذا الأخير كعادته إلى أبعاد جغرافية محددة في مداها، نجده محملا بدلالات سياسية واجتماعية وتاريخية كشفت بحضورها عن تواريخ وأحداث وشخصيات مهمة عن تاريخ الوطن.

أخذت المدينة فضاءً معادلا لضيق كرامة الإنسان، وغياب المفاهيم الإنسانية، حيث بات الموت سيّد اللحظات فيه، وأصبح العنف هو الزمن الصاعد على جسده المتهاوي والمتهاك ضمن أطروحة العنف القاسية التي مثلتها العشرية السوداء في الجزائر، وقد مثلت المدينة مكانا تصطدم فيه الذات بقسوة العالم المتمدّن وجبروته.

قائمة المصادر والمراجع:

• قائمة المصادر:

1- واسيني الأعرج، حارسة الظلال، ط2، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2006.

• قائمة المراجع:

2- إحسان محمد الحسن، علم اجتماع العنف والإرهاب دراسة تحليلية في الإرهاب والعنف

السياسي والاجتماعي، دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008.

فاطمة بوقري / الصفحات: من 71 إلى: 81

الملتقى الوطني (الأبعاد الفنية والدرامية لفضاء المدينة في الخطاب الروائي المعاصر) جامعة الشلف- 22-23 نوفمبر 2022م

Available online at <https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/715>

● قائمة المجالات العلمية:

- 3- مليكة حيمر، صورة المدينة العربية في ظلّ المحنة الجزائرية –قراءة في ثنائية الطاهر وطار الشمعة والدهاليز والولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي-، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، العدد 09، جامعة تامنغست، 2020.

هوامش البحث:

- ¹ - ينظر: مليكة حيمر، صورة المدينة العربية في ظلّ المحنة الجزائرية –قراءة في ثنائية الطاهر وطار الشمعة والدهاليز والولي الطاهر يعود إلى مقامه الزكي-، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، العدد 09، جامعة تامنغست، 2020، ص: 263- 264.
- ² - إحسان محمد الحسن، علم اجتماع العنف والإرهاب دراسة تحليلية في الإرهاب والعنف السياسي والاجتماعي، داروائل للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2008، ص: 25.
- ³ - واسيني الأعرج، حارسه الظلال، ط2، ورد للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2006، ص: 68- 185- 150- 207.
- ⁴ الرواية، ص: 75.
- ⁵ - الرواية، ص: 192.
- ⁶ - الرواية، ص: 154.
- ⁷ - الرواية، ص: 208.
- ⁸ - واسيني الأعرج، حارسه الظلال ، ص: 15.
- ⁹ - إحسان محمد الحسن، علم اجتماع العنف والإرهاب دراسة تحليلية في الإرهاب والعنف السياسي والاجتماعي، ص 25.
- ¹⁰ - الرواية، ص: 139- 113- 156- 128- 148- 139.
- ¹¹ - واسيني الأعرج، حارسه الظلال، ص: 33.
- ¹² - الرواية، ص: 34.
- ¹³ الرواية، ص: 119.
- ¹⁴ - واسيني الأعرج، حارسه الظلال ، ص: 86.
- ¹⁵ - الرواية، ص: 107.
- ¹⁶ - الرواية، ص: 46.
- ¹⁷ - الرواية، ص: 24.
- ¹⁸ - الرواية، ص: 21.
- ¹⁹ - ينظر: الرواية، ص: 16.
- ²⁰ - ينظر: واسيني الأعرج، حارسه الظلال ، ص: 16- 17.
- ²¹ - الرواية، ص: 16.